حاجتنا إلى الحرية

الملحق الثقافي لجريدة المغرب - السنة الثانية - 1938

يمتاز العصر الحاضر بأن الإنسان متع نفسه بحرية لم تكن له بالماضي في مختلف نواحيه، وبذلك تقدمت الحياة الإنسانية خطوات شاسعة سواء في ميدان الإنتاج الفكري أو الإنتاج المادي، وخضعت كثير من القوى للإنسان بعدما كان يخضع لها، واتسع أفق المعرفة وشمل المناحي الخفية في النفس، وأحدثت مقاييس جديدة تقاس بها المسائل جميعها، فالأخلاق تلبست صورا جديدة، والمعاملات خضعت لتأثيرات جديدة، والأنظمة تغيرت وصورت حسب ذلك المقدار من الحرية الذي أحرز عليه الإنسان في حياته الجديدة. ولم يبق ذلك النصيب من الحرية تحت رحمة الظروف وانقلابات الفكر وعوامل السياسة وتأثيرات الاقتصاد، بل أصبح حقا لا يمس وفكرة لا تقبل الشك مهما تلونت حياة المرء واصطبغت تحت العوامل المشتركة في الأمة باتجاهات جديدة، ذلك أن الحياة نفسها تقدمت لا بعض صورها الظاهرة فحسب فالأمم اليوم مجموعة أفراد هذبهم التعليم وأزاح عنهم أستار الجمود ولفائف الرجعية التي كانت حتى الأمس القريب تحول بينهم وبين المعرفة الحقة والنور المبين، وبذلك أصبحت الجماعات تشارك في إدارة شؤونها لا تسلمها لهيأة إلا تحت شروط ولغاية واضحة، وأصبحت تلك الهيأة نفسها وقد رقت بفضل التطورات العامة وأثر عليها المجرى العالمي لا تفكر إلا في إرضاء تلك الجماعات وخدمتها خدمة صادقة، فإن أقوى المسيطرين المستبدين اليوم لا يخدمون مصالحهم بل يخدمون الأمة التي سيطروا عليها ويعلنون ذلك في كل مناسبة ويبرهنون عليه بمجهوداتهم، وهم لو حاولوا غير ذلك لسقطوا من يومهم ذلك لأن المستوى العام في كل أمة متمدنة أصبح يدرك حقوقه لا يسمح بالتنازل عن جزء منها وأصبح يقدر واجباته فلا يغفل عنها. ذلك في أمة تطورت واعترفت لنفسها بذلك النصيب من الحرية؛ أما في أمة لا زالت أغلال

الجمود تقيدها وعوامل الرجعية يحيط بها كأمتنا، فإن حياتها ذابلة قاتمة، وخطواتها هى إلى الوراء لا إلى الأمام، ذلك لأنها في جو مخنوق من الحرية التي هى الهواء الضروري لكل الأمم الحية اليوم؛ ومتى استطاعت الحياة الجسمية أو النباتية أن تحيا دون هواء حتى تستطيع أمتنا أن تحيا دون حرية؛ فإن الحياة العديمة الهواء النقى تنمو مستنقعاتها، وتتنوع جراثيمها، وتكثر حشراتها حتى تصبح منبع الفساد لما يجاورها؛ وهكذا حياة المغرب اليوم تعددت مفاسدها، واختلت أنظمتها، وانحطت مقاييسها، ذلك أنها تعدم الحرية فتعدم هواء الأمم التي يحوم في سمائها الموت ويسرع إليها الفناء. والحرية التي نحن أحوج الأمم إليها لا تتصل بناحية واحدة من نواحي الحياة بل ينبغي أن تشمل كثيرا من مرافقنا الاجتماعية وأنظمتنا السياسية وهيئاتنا التعاونية واتجاهاتنا الفكرية ومقاييسنا الفنية؛ فإن شبح الجمود والاستكانة يخيم بجناحيه في أية جهة نولي وجهنا إليها، فأرقانا فكرا لا يقوى على انتقاد للجماعة التي يعيش بينها، وأجرانا رأيا لا يستطيع أن يتحمل انتقاد الغير برباطة جأش وسلامة طوية ليستفيد من ذلك الانتقاد ويقوى ناحية الضعف فيه. وفي مناحي حياتنا الأخرى لسنا في جميعها إلا عبيد عادات ومسخري خرافات ومنقادين لتيار حيث تنعدم الحرية الفردية والاجتماعية وحيث نكون أجساما لا تبيح لنفسها أن تنتقد ولا أن تفكر بطريقة من طرق التفكير؛ فنحن نمارس ما نمارس من الحياة بصورة آلية، فإذا سمعنا صيحة هلعنا، وإذا انتقدنا غضبنا، وإذا أردنا إصلاحا تخوفنا. فالنقد عامل مهم في تكوين حضارة العصر وهو الطريقة الوحيدة للإصلاح، يجب أن نرحب به ونفسح له كل ميادياننا ليلقى عليها شعاعه، وبذلك ندرك قيمة الحرية وخطورتها؛ فإن النقد إذا كان أساسا لكل إصلاح فإنه لا يمكن أن يوجد ما دمنا نحول بيننا وبين الحرية ولا نسمح أن يعيب علينا الغير أخطاءنا ويستهجن أحوالنا غير المرضية، بل نشن الغارة ونعلن حربا على كل أحد انتقدنا. فإذا تعشقنا الحرية فلنعود أنفسنا أولا عليها، ونقدر للنقد قيمته الحقيقية ونعتبره الطريقة المؤدية إلى الإصلاح والسبيل الممهد للحياة العصرية.